سؤال

من خلق الله؟

إعداد: مصطفى أحمد ثابت

مبادرات طابة
TABAH INITIATIVES

Ar | مطوية رقم ( ) | ٢٠٢٠

مقدمة

تكلمنا في إصدار سابق من إصدارات مطويّات مبادرة سؤال على «دليل حدوث العالم» الـمُـسَمَّى :

بالدليل الكوسمولوجي A cosmological argument

كأحد الأدلّة المشهورة على وجود الله، ومُلخّص هذا الدليل: أن العالم مخلوق من عدم؛ أي لوجوده بداية، وبالتالي فإن له خالقًا وهو الله سبحانه؛ لاستحالة إيجاد شيء من العدم بدون سبب يُوجده ويخلقه، وهذا الإله موصوف بالعلم والقدرة والإرادة؛ لأن الجاهل العاجز لا يمكنه أن يوجد شيئا.

فعندئذ يسأل بعض الناس: ولماذا افترضتم أنَّ العالم احتاج في وجوده إلى الخالق، وقلتم إن الله –خالق العالم –لا يحتاج في وجوده إلى خالق غيره؟ أليس هذا نوعًا من التناقض والتحكّم؟ أجيبونا أيضا عمَّن خلق الله؟

وهذا السؤال مشهور، أغلبنا قد سأله لنفسه أو لوالديه في صغره، بل إن بعض المفكرين والفلاسفة الكبار مثل الفيلسوف الإنجليزي برتراند راسل ذكر أنه عندما سأل والده هذا السؤال ولم يجد منه إجابة شافية، استنبط من ذلك ضعف «دليل الحدوث» أو دليل «السبب الأول» الذي يقدمه المؤمنون على وجود الله.

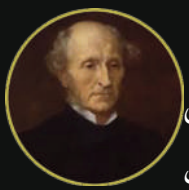
JOHN STUART MILL

فيقول في كتابه لماذا لست مسيحيّا:

«عندما كنت صغيرا، كنت أجادل في هذه الأسئلة مع نفسي بجدية، وقد قبلت لفترة طويلة حجة «السبب الأول» حتى قرأت في يوم من الأيام السيرة الذاتية لـ ستيوارت مل لما كنتُ في سن الثامنة عشرة من عمري، ووجدت فيها هذا المقطع: «علمني أبي أن سؤال: من خلقني؟ لا يمكن الإجابة عنه؛ لأنه يؤول مباشرة إلى ظهور سؤال آخر: «من خلق الله؟»».

ثم يُكمل راسل قائلا:

«لقد كشف لي هذا المقطع البسيط جدا، كما هو اعتقادي إلى الآن، وجه المغالطة في دليل «السبب الأول»،إذا كان لكلٍ شيء سبب، فلابد أن يكون لله أيضا سبب، إذا كان من الممكن أن يكون شيء ما بلا سبب، فمن الممكن أن يكون العالم كما الله، وبالتالي فليس لهذا الدليل أدنى شرعية». اهـ

فكما نرى وجدنا كيف أن هذا الإشكال قد أدى بهذا الفيلسوف المشهور ذائع الصيت أن يتردد ويرفض قبول

«دليل حدوث العالم»

كأحد الأدلّة على وجود الخالق.

وبعض الناس يورد الإشكال بصيغة أخرى؛

فيقول:إذا كان الله ليس له خالق كما يقول المؤمنون، ووجوده لا يحتاج إلى سبب، فلماذا لا نقول هذا الكلام نفسه عن العالم وينتهي الأمر؟ فنقول:

العالم له بداية ولا يحتاج إلى سبب أو تفسير لوجوده؟

إذا أردنا أن نعرف المغالطة في هذا السؤال أو نُبيّن حقيقة الإشكال عند السائل، فلابد أن نرجع خطوة إلى الوراء ونسأل أنفسنا: لماذا يُعدّ ظهورُ شيءٍ من عدم يحتاج في تفسيره إلى سبب؟ وما هو قانون السببية الذي نفسّر به كل شيء من حولنا؟ والذي يقوم فَهمُنا للعالمِ كُلِّهِ ونشأتِه بناء عليه؟

معنى السببية ببساطة:

أن الشيء إذا تغيّر من حال إلى حال، ومن صورة إلى أخرى، ومن صفة إلى صفة مختلفة؛ فإن هذا التغير لابد أن يكون له سبب، وهذا أمر شديد الوضوح لكل إنسان، بل قال الإمام الرازي إنه موجود في فطرة الحيوانات، فإن الحيوان إذا كان يمشي على الأرض ثم تعثّر ووقع فإنه ينظر خلفه مباشرة، لعلمه أن هناكَ أمرًا ما أو شيئًا ما اصطدمت به رجلُه فتَسبّبَ في وقوعه، فالسببية أمر مُهيمن على حياتنا اليومية في كل كبيرة وصغيرة، هل رأيت مثلا من يذهب إلى السوبر ماركت وينتظر أن تأتيه البضائع التي يُريدها بدون أن يسعى إليها؟ وهل رأيت فقيرا ينتظرأن تمتلئ جيوبه بالمال بلا سبب؟!

وهل رأيت الأزهار تتفتّح والأشجار تورق دون أن تسأل نفسك من الذي قام بزَرْعِها وسَقْيِها بالماء؟

إننا نعلم في قرارة أنفسنا أن كل تفصيلة في حياتنا كبيرة كانت أو صغيرة مرتبطة بالسببية.

إذن فقانون السببية يرتبط بـ «التغيّر»، أمّا إذا ظلَّ الشيء ثابتًا فإننا عادة لا نسأل عن السبب، فأنت إذا خرجت من بيتك وقد كانت غرفة نومك نظيفةً مُرتّبةً، ثم عُدتَ إليها في المساء فوجدتها مُبعثرة أو سُرِق شيء منها أو فُقِد، فإن عقلك لا إراديّا يبدأ بالبحث عن سبب هذا التغير: هل كان هناك لِصّ؟ أو دخلها صديقٌ لك في غيابِك يُريد أن يمزحَ مَعَك؟ أو جاءت رياح عاصفة كسرت النافذة وغيرت ترتيب محتويات الغرفة؟ كل هذه الاحتمالات نشأت لأن شيئا ما في صفات هذه الغرفة أو محتوياتها قد

تغير من صفة لصفة ومن هيئة لهيئة.

وأعظم صورة من صور التغير وأوضحها هو:

التغير بين الوجــود والعدم؛ كَـأنْ يكون هناك موجود انتهى وعُدِم، أو ظهور موجودٍ لا من مادّة سابقة عليه وهو العدم المحض.

فالتَّغير نوعان:

1 **تغير الصفات** الموصوف بها الشيء.

كالطفل ينمو ويصير أطول وأكثر قوة، ثم يصبح شيخًا ضعيفا.

والبذرة يخرج منها الزهرة ثم تذبل وتموت.

2 **تغير الذوات**

من وجود إلى عدمٍ أو العكس.

وأوضح مثال على ذلك هو **نشأة هذا الكون** كله لا من مادّة سابقة عليه؛ أي من العدم.

وقد وضحنا في مطوية **دليل الحدوث** كيف أن تغير الصفات القائمة بالأشياء دليل قاطع على وجود بداية لهذه الأشياء وأنها مخلوقة من عدم.

ولو أردنا أن نغوص بعقولنا أكثر لندرك حقيقة هذا «التغيّر» لوجدناه يرجع إلى الوجود بعد العدم أو العدم بعد الوجود، فكل شيء يتغيّر توجد فيه صفات جديدة لم تكن موجودة فيه من قبل، أو تُعدم بعض الصفات التي كانت قائمة به.

فالذي جعل عقولنا تسأل عن سبب وجود العالم: أن العالم قد ظهر إلى الوجود بعد أن لم يكن له وجود؛ أي كان لوجوده بداية، والعقل لا يقبل هذه الصورة من التغير دون أن يسأل عن السبب أو الفاعل.

أمّا إذا افترضنا فرضًا أن هناك موجودا لم يطرأ عليه أدنى تغير ولم يكن لوجوده بداية، أي لم يكن هناك لحظة ما لم يكن فيها ذلك الموجود موجودا، ثم أقمنا دليلا على صحة هذا الفرض فإن السؤال عن سبب وجوده يُصبح عبثيًا لا معنى له، لأننا قررنا أن السببية ترتبط فقط بالتغير أو بالوجود بعد العدم، أو العدم بعد الوجود.

وهذا الموجود الذي لم يُسْبَق بالعدم أو بموجود قبله يُسمى :

بواجب الوجود

الفارق بين الممكن والواجب.

وينبني على ما سبق أن الموجودات بشكل عام لابد أن تكون على قسمين:

1 موجود ممكن، وهو العالم بِكلِّ مُكوّناته من جمادات ونبات وحيوانات، ومعنى الموجود الممكن: أي الذي يحتمل الوجود أو العدم بالنظر إلى حقيقته، أو الذي يتساوى في حقه كلا من الوجود والعدم، فوجوده ليس ضروريا أو حتميا؛ ووجوده كذلك ليس مُستَنِدًا إلى ذاته لكنه مُستَمَدّ من غيره، وقد عرفنا هذه الحقيقة -أي كون الممكن ليس ضروري الوجود- لما أدركنا حدوثه أي كون وجوده له بداية، وهو ما تحدثنا عنه سابقا، فسبق الموجود بالعدم أوضح دليل على أنه ممكن وغير ضروري الوجود؛ إذ لو كان ضروريا لكان موجودا دائما بلا انقطاع أو انتهاء في الماضي أو المستقبل.

النوع الثاني من الموجودات هو:

الموجود الواجب:

أو الضروري الوجود؛ أو واجب الوجود: وهو الموجود الذي يستمد وجوده من ذاته، وليس مُستَنِدًا في وجوده على أحدٍ غيره، فهو دائم الوجود في الماضي والمستقبل، لا يُتصوّر في حقه العدم أو الموت أو الفناء أو غيرها من صفات «الموجود الممكن».

ولكن هنا يقول صاحب السؤال:

ما هو الدليل على هذا الفرض؟ وهو وجود موجود واجب الوجود؟ ولماذا لا تكون جميع الموجودات «ممكنة»، تُوجد ثم تعدم وتفنى، وهكذا بلا بداية؟ فدعوى أن هناك موجودًا واجب الوجود هي مجرد مصادرة على المطلوب، أي هي مجرد فرض بلا دليل في محلّ النزاع.

استحالة تسلسل الحوادث:

دعوى وجود هذا الموجود الواجب الوجود هي نتيجة طبيعية لاستحالة تسلسل الموجودات الممكنة، أو استحالة تسلسل الحوادث (جمع حادث أي مخلوق)،

ومعنى التسلسل ببساطة:

أن يكون كل موجود ممكن وحادث معتمد في وجوده على موجود ممكن آخر ومُسْتَمِد وجوده منه، وهذا الآخر معتمد على موجود آخر قبله؛ فالابن استمد وجوده من أبيه وأمه، والوالدان استمدا وجودهما من والديهما، وهكذا تعود السلسلة إلى الوراء بلا بداية، وكذلك الثمرة خرجت من الشجرة والشجرة خرجت من بذرة والبذرة جاءت من ثمرة وهكذا بلا بداية لهذه السلسلة الممتدة في جانب الماضي .

ولذا يُعرّف الإمام العضد الإيجي -أحد المتكلمين المشهورين من أهل السنة -التسلسل بقوله: «هو أن يستَنِد الممكن إلى علة، وتلك العلة إلى علة، وهلمّ جرًّا إلى غير النهاية»[1] . اهـ

والمقصود بالعلة هنا أي السبب الذي أوجد الممكن .

1-المواقف ص 90.

وهذا المفهوم أي تسلسل الأسباب بلا بداية فهو مستحيل وممتنع باتفاق العقلاء من كل الفرق، وقد ذكر المتكلمون والفلاسفة أدلة كثيرة على استحالته منها على سبيل المثال:

أنه لو كان تسلسل الأسباب والعلل جائزا لما رأينا شيئا من الممكنات الموجودة اليوم في العالم موجودا.

وتقرير هذا الدليل:

أنه يترتب على صحة التسلسل وجود عدد لا نهائي من الممكنات قد دخل في حيّز الوجود منذ الأزل وحتى اليوم، بتعبير آخر: أي إن المالانهاية قد تحققت بالفعل في الموجودات التي أتت لهذا العالم.

ثم يترتب على ما سبق أن وجود سائر الممكنات التي نراها في حياتنا اليوم مترتب على انتهاء ما سبق عليها من الأسباب اللا نهائية التي وُجِدتْ قبلها؛ لأن الموجود الحالي هو أثر من آثار الأسباب اللانهائية السابقة عليه.

ومعنى هذا ببساطة أن ما لا نهاية له قد انتهى وهو تناقض صارخ، ومنطق غير معقول.

ولتقريب الفكرة السابقة نضرب مثالا مشهورا:

إذا قامت الحرب بين بلدين، وقرر الجندي أن يضرب الطلقة الأولى على العدوّ في هذه الحرب، فإنه لابد أن يكون قد صدر له الأمر بذلك من قائده، وهذا القائد المباشر للجندي الذي سيطلق الرصاصة الأولى في الحرب هو أيضا قد صدر له الأمر من قائده، وهكذا كل قائد من قادة الجيش يتلقى التعليمات الخاصة ببدء الحرب من القائد الخاص به، ويتسلسل الأمر الخاص بالقادة حتى ينتهي إلى القائد الأعلى للقوات المسلحة الذي يكون له سلطة أخذ قرار الحرب والتصديق عليه، والذي يكون عادة رئيس الجمهورية.

الآن تَخيّل لو أن سلسلة القادة الذين يصدرون الأوامر للرتب العسكرية الأقل منهم لا تنتهي إلى قائد أعلى وأخير هو الرئيس، بل كل قائد فوقه قائد يرأسه، وتحته قائد آخر يتبعه، فهل تظنّ في هذه الحالة أن الجندي يمكن أن يصل إليه الأمر العسكري ببدء الحرب؟

الجواب بالطبع مستحيل؛ لأن ما لا بداية له ليس له نهاية.

هذا بالإضافة إلى اتفاق علماء الرياضيات على استحالة وجود المالانهاية في الواقع، فهي مجرد مفهوم رياضي لا يمكن أن يتحقق على أرض الواقع.

ونستنتج من هذا أن هذا العالم الموصوف بصفتي الإمكان والحدوث لابد أن يكون له صانع أول وخالق أوّل ليس موصوفا بصفات هذا العالم من التغيّر وبداية الوجود، بل وجوده لا أول له، ولا يطرأ عليه التغير أو التبدل أو التحول من حال إلى حال، وبهذا يصبح السؤال: من خلق الله لا معنى له.

مغالطة الفئة : Category Fallacy

مما سبق نفهم أن السؤال عن خالق الخالق أو من خلق الله هو مغالطة تقع ضمن نطاق مغالطة تسمى: مغالطة الفئة، ومعنى مغالطة الفئة: السؤال عن شيء ما بطريقة لا تناسب حقيقته وطبيعته.

مثل من يسأل ويقول: كم سنة عاش فيها والدك في الأرجنتين؟ رغم أن والدك لم يذهب للأرجنتين يوما ما. فالسؤال الصحيح هل ذهب والدك من قبل للأرجنتين؟

ومثل من يسأل: ما لـون رائحة الليمون؟ أو ما طعم اللون الأزرق؟ أو أين يوجد يوم الأربعاء؟ فإن الرائحة لا لون لها، والألوان لا طعم لها، والزمن والوقت لا يتحيز في مكان معين حتى يُسأل عنه بأين.

نفس الأمر بالنسبة للخالق فإن من أخص صفاته كما قلنا: أنه واجب الوجود، ليس

لوجوده بداية، وبالتالي فلا معنى أن نسأل: من خلقه؟ لأن معنى السؤال حينئذ يكون:

من الذي خلق الموجود الذي ليس مخلوقا؟ وكما ترى فهذا سؤال فيه نفي وإثبات معًا أي اجتماع النقيضين أو السؤال عن شيء ليس من حقيقة هذا الموجود.

ماذا عن ميكانيكا الكم . Quantum mechanics ؟

ظهر في السنوات الأخيرة بعض العلماء التجريبين المتخصصين في فيزياء الكم يدّعون إنه يمكن أن تُلغى السببية في المستوى دون الذّري، وبعضهم مثل الكاتب لورنس كراوس في كتابه: **Universe from nothing**[2] ادعى أنه يمكن أن ينشأ العالم بدون سبب، كما تنشأ الجسيمات الافتراضية **Virtual Particles** في عالم الكم وتختفي بدون سبب، فيما يُعرف بفرضية تذبذب الفراغ الكمومي **Quantum fluctuation** ما يعني انتفاء السببية في عالم الكوانتم بما يسمح بالقول بأن العالم يمكن أن يكون نشأ من العدم صدفة وبدون سبب.

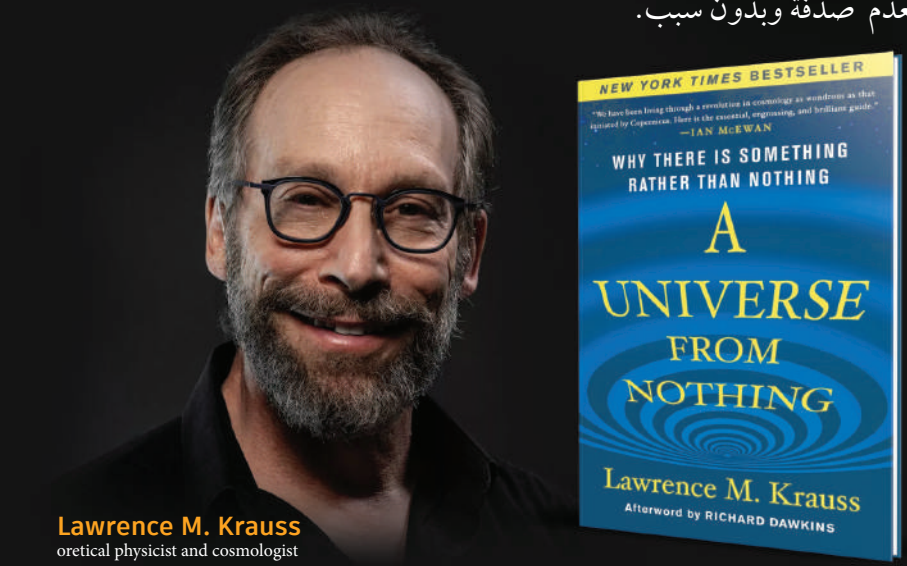

2-قال الفيزيائي والرياضي **Ikjyot Singh Kohl** عن هذا الكتاب: إن العديد من دعاويه غير مدعومة في كليتها بنظرية قانون النسبية الحديثة ولا نظرية المجال الكمومي في الزمكان المنحني.

ولتوضيح الفرضية السابقة فإن الفيزيائيين يتساءلون: هل يوجد مكان ما في الكون لا يوجد فيه أي شيء؟ على سبيل المثال: الفجوات بين النجوم والمجرات أو الفجوات الكامنة في الذرات والجسيمات المجهرية الأخرى، هل يعتبر هذا: «لا شيء»؟ حسنًا؛ أغلق عينيك وتصور الأمر في ذهنك وركز جيدا على اللا شيء!

الحقيقة فإن كل هذه الفجوات والفراغات يوجد فيها شيء ما؛ هناك آلاف الجسيمات في هذا الفراغ الكمومي، حتى لو حاولت إزاحة تلك الجسيمات سيبقى هناك أطوال موجية من الإشعاع الذي سيتمدد على طول المسافات الواسعة في هذا الفضاء، فهناك حقل مغناطيسي ضعيف جدا موجود في كل أرجاء الكون.

حتى لو تمكنت من إزالة كل شيء من الكون، سيبقى لديك هذه الاهتزازات الكمومية **Quantum fluctuations** المدفونة في نسيج الزمكان **Space time** .

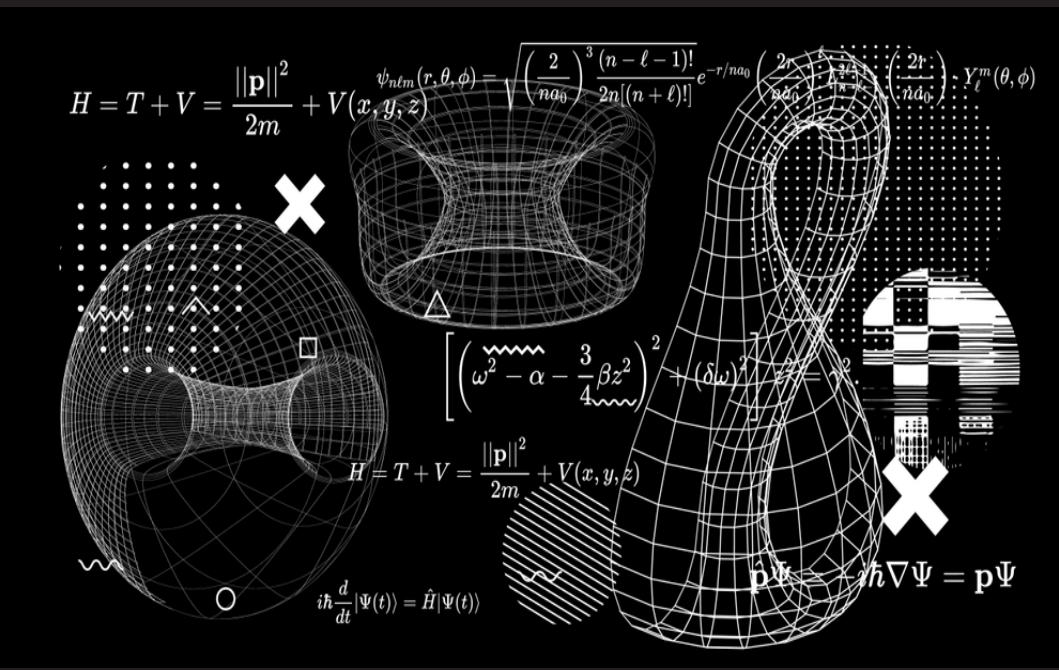

المشكلة هنا أن الفيزيائيين المعاصرين لما رأوا أن التسمية التي تطلق على هذه المساحات هي: « الفراغ » **Vacuum** توهموا أن هذا هو العدم أو اللا شيء بالمعنى الفلسفي الذي هو نفي الوجود! وهذا ليس صحيحا كما قلنا، فالعدم الفيزيائي أو الكوانتي ليس هو العدم الفلسفي الذي قلنا: إن العالم نشأ لا من مادة سابقة عليه، بل من العدم ضرورة استحالة التسلسل، فالقول بأن هناك أشياء تنشأ من عدم بلا سبب هو نوع من التلاعب بالألفاظ.

والفيزيائيون أنفسهم مختلفون بشأن وجود السببية في حقل فيزياء الكم، وهناك عشرات التفسيرات لظاهرة نشأة الجسيمات الافتراضية وانعدامها في المستوى تحت الذري، منها تفسير مدرسة كوبنهاجن الذي يتبنى اللاحتمية السببية، وهناك تفسيرات أخرى مثل تفسير **David Bohm** حيث يرى لنشأة هذه الجسيمات أسبابا ضمن آليات قانونية مستقرة، وهو ما كان عليه أينشتاين الذي رفض بشدة تفسير (كوبنهاجن) .

ويُقرر هذا المعنى المعنى فيلسوف العلوم ريتشارد هيلي **Richard Healey** في كتابه: فلسفة ميكانيكا الكم فيقول ص 2: «لا توجد نظرية واحدة تفسّر بصورة تامة ميكانيكا الكم وإنما نحن بمواجهة عدد هائل من المحاولات لفهم ميكانيكا الكم».

ويقول أيضا الفيزيائي الملحد فكتور ستنجرفي كتابه هل العلم وجد الله ص 173 : «علينا أن نبقى متفتحين على إمكانية أن تظهر يوما ما أسباب هذه الظاهرة».

Victor John Stenger
Particle Physics

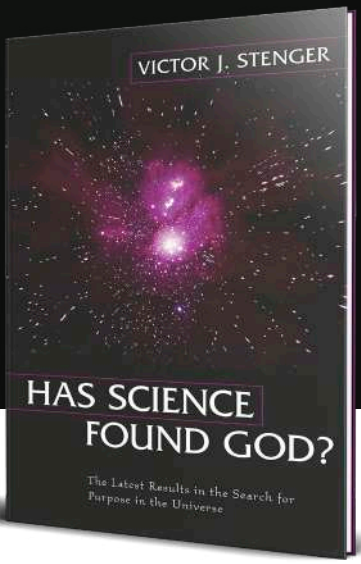

والخلاصـــة هنا

أن الجهل بسبب ظهـــور هـــذه الجسيـــمات في عالم ميكانيكا الكم لا يعني انتفاء السبب، كما أن الفراغ الكمومي الذي توجد فيه أعداد هائلـــــة من الجسيمات الافتراضية ليس هو العدم المحض الذي يقصده الفلاسفة وإنما هو يعتبر «شيئا» ما، فالادعاء بـــأن هـــذا مثـــال على ظهور أشياء من العدم بلا سبب مغالطة واضحة.

الخلاصـــــة

سؤال: من خلق الله؟ سؤال خاطئ، ويحتوي على تناقض داخلي أو مغالطة؛ لأن الله لم يُخلَق من العدم مثل بقية المخلوقات من الموجودات الممكنة؛ والدليل على أنه لم يُخلَق من العدم: مقدمتان عندما تجتمعان معا توصّلان إلى هذه النتيجة، وهما: (قانون السببيّة الذي ينص على ضرورة وجود سبب لكل موجود له بداية+ استحالة التسلسل اللانهائي في جانب الماضي).

وهذا الدليل مُشارٌ إليه في قول الله تعالى:

أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ [الطور: 35، 36].

لأن العقل إذا رأى المخلوقات من حوله بدأ بالبحث عن الأسباب والاحتمالات التي أدت لوجود تلك المخلوقات، وهي ثلاثة احتمالات:

1) أن يكون الإنسان أو العالم وُجد وخُلِق بلا سبب، وهو المشار إليه في قوله تعالى: «أَمْ خُلِقوا من غير شيء». وهو المسمى بالصدفة، وهذا باطل بالضرورة لأنه ينافي السببية كما قلنا.

2) أن يكون الإنسان هو الذي خلق نفسه وخلق العالم من سماوات وأرض، وهو المشار إليه في قوله تعالى: «أم هم الخالقون، أم خلقوا السماوات والأرض». وهذا باطل بالبداهة.

3) الاحتمال الثالث أن يكون هناك خالق للإنسان وللسماوات والأرض، واجب الوجود ليس له خالق لم يلد ولم يولد، وهو الله سبحانه.

والقرآن يتبع هذه الطريقة الاستدلالية وهي الإشارة للاحتمالات الباطلة بصيغة الاستنكار، ثم ترك الاستنباط للعقل كي يصل للاحتمال الباقي الصحيح، وهي طريقة تدعو للتفكر والبحث وإعمال العقل واحترام حرية البحث عند الإنسان.